

مطالعات في التصوف

(أ) قال رويم : « التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار . والتحقق بالبذل والايثار . وترك التعرض والاختيار . »

(ب) وسئل الجنيد عن التصوف ما هو . فأجاب بقوله : « ان نكون مع الله بلا علاقة . »

(ج) وقال معروف الكرخي : « التصوف الأخذ بالحقائق واليأس بما أيدى الخلائق . فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف . » وبعد أن ذكر المؤلف هذه التعريفات ، تراه قد قدم لنا تعريفات أخرى للفقر والفقير اليك أهمها :

(أ) سئل الشبلي عن الفقر فقال : « ألا يستغنى بشئ مدون الحق » (ب) وقال أبو الحسين النوري : « نعت الفقير الكون عند العدم . والبذل والايثار عند الوجود »

وانتهى مؤلفنا من هذه التعريفات التي قدمت ، الى ان هناك اشتباها بين التصوف والفقر . فانت ترى مثلا ان اشياء بعينها تذكر في معنى التصوف يذكر مثلها في معنى الفقر . وإن اشياء بعينها يرد ذكرها في معنى الفقر يرد ذكر مثلها في معنى التصوف . ومن هناك كان الاشتباه . ومن هنا أيضا كان لابد من التحقيق الذي يكشف الفاصل بين كل من التصوف والفقر ، والفرق الذي يميز ويحدد ماهية كل من التصوف والفقر ، وفوق هذا فان الاشتباه ليس قاصرا على التصوف والفقر فحسب وانما هو قد تجاوزهما الى التصوف والزهد . واذن فلا بد من التبحر الدقيق الذي يبين الفرق بين التصوف والفقر من ناحية والتصوف والزهد من ناحية أخرى . بحيث نلبيس الاشتباه الذي يمكن أن يكون بين كل من هذه الاشياء الثلاثة . ونميز الفرق بينها تمييزا يحدد كلامنا تحديدا من شأنه أن يحول بين اندماج بعضها في بعض أو تشابه بعضها مع بعض .

فانت اذا انعمت النظر ودققت الفكر في هذه المسألة تبين لك ان التصوف غير الفقر ، وان الزهد غير الفقر ، وان التصوف غير الزهد . وليس التصوف غير اسم جامع لمعانى الفقر والزهد باضافة صفات ونعوت لابد منها لكي يكون الرجل صوفيا . فقد يكون الرجل زاهدا وقد يكون فقيرا ولكنه ليس صوفيا . ولكنه لكي يكون صوفيا لابد له بين أن يكون زاهدا وفقيرا .

وليس التصوف زهدا أو فقرا باضافة صفات ونعوت فحسب ، وانما هو شئ آخر ابلغ وأروع من هذا كله واقدر على تهذيب النفس ، وتنقية القلب ، وتصفية الضمير ، هو كما قال ابو محمد الحريري : « الدخول في كل خلق سني ، والخروج عن كل خلق ذني . »

وأهل الشام لا يميزون بين التصوف والفقر ، فهم يذهبون الى

عوارف المعارف — ماهية التصوف — أصل كلمة صوفي

— ٣ —

لعل حظ كل من البابين الخامس والسادس من الأهمية والقيمة العلمية أكثر من حظ غيرهما . فهذان البابين يدلان دلالة واضحة مستقيمة لا ليس فيها ولا اعوجاج على ماهية التصوف وكنهه وعلاقته بالفقر والزهد ، والفرق بينه وبين الفقر والزهد . هذا هو ما يتناوله الباب الخامس من كتاب عوارف المعارف فيما قدم لنا فيه مؤلفه من تعريفات متنوعة للتصوف . أما الباب السادس فانه يظهرنا على مسألة ليست أقل من سابقتها خطرا . ولكنها على العكس أبعد ما تكون أثرا في اعانتنا على فهم التصوف وما مر به من أطوار فيها مستقما . وأعني بها مسألة الاصل الذي صدرت عنه كلمة صوفي وتلك مسألة قد عرض لها مؤلف عوارف المعارف في نهاية الباب الاول من كتابه فأشار اشارة موجزة الى أن هذه اللفظة لم تذكر في القرآن وإنما تركت وذكر مكانها لفظ المقرب . وإذن فالمؤلف يفصل في الباب السادس من كتابه ما أجمل في الباب الأول . وهو يعرض علينا في شئ من الاستطراد الآراء المختلفة التي رآها العلماء المختلفون في الاصل الذي أشتقت منه هذه الكلمة . وهو ينتهي من هذه الآراء كلها الى الرأي الذي يلائم طبيعة الاشتقاق اللغوي من ناحية . ويدل دلالة صحيحة على طبيعة الصوفية وماهية التصوف من ناحية أخرى . وبالجمله يمكننا أن نقول أن هذين البابين من كتاب عوارف المعارف أقدر على اعطائنا فكرة عامة شاملة تستطيع أن تظهرنا على لب التصوف .

١ — ففى الباب الخامس يقدم الينا المؤلف طائفة من التعريفات اختلفت في مبانيها واتفقت في معانيها . وهو يظهرنا من خلال هذه التعريفات على ماهية التصوف والفقر والزهد . ثم هو ينتهي من هذا كله الى أن هناك فرقا بين التصوف من ناحية وبين كل من الفقر والزهد من ناحية أخرى . كما أنه ينتهي الى أن أساس التصوف وقوامه انما هو الفقر ولكي أكون لديك صورة صادقة لما اشتمل عليه هذا الباب لابد من أن أقف بك وقفة قصيرة تلم فيها بأهم التعريفات التي عرضها علينا المؤلف لتبين منها ماهية التصوف :

الله وصف الفقراء بالصوفية . وإلى أن الصوفية سموا كذلك لانهم فقراء . ولكن مؤلفنا قد تناول هذه المسألة بالدرس والتحقيق ف أوضح غامضها وكشف عن وجه الحقيقة فيها بحيث اظهر لنا في وضوح وجلاء الفروق بين التصوف والفقر . وأول هذه الفروق هو ان الفقر في فقره متمسك به راض عنه ، مطمئن اليه . وهو في هذا كله قانع بما سيجد عند الله من العوض . وهو كلما أمعن في النطلع الى هذا العوض ازداد اعراضا عما في الدنيا من اعراض زائلة وزخارف باطلة . وأما الصوفي فلا يرغب عن زخرف الدنيا وعرضها ابتغاء هذه الاعواض الموعودة ولكنه يفعل هذا من أجل الاحوال الموجودة . وثاني هذه الفروق هو أن الفقير حين يتمسك بفقره ويمتنع في ترك الدنيا واعراضها انما يفعل هذا بأرادته واختياره على حين انك ترى الصوفي قد تجرد من هذا الاختيار وهذه الارادة . فهو في جميع احواله قد بحيث فيه ملكة الاختيار وقبت أرادته في إرادة الله فناء تاما بحيث الا يصدر في شيء الا عن إرادة الله . ولا يرى فضيلة ما في فقر او غنى ، ولكن الفضيلة عنده كائنة فيما اقامه الله فيه من حال . وليس ادل على ان الصوفي قد فئت ارادته في إرادة الله ، من قول الجنيد الذي عرف فيه التصوف بأنه . « هو ان يمتك الحق عنك ويحييك به » فمن هذا ترى الفرق واضحا بين التصوف والفقر . كما ترى ان التصوف قوامه ودعامته الفقر بمعنى أن الوصول الى مراتب التصوف انما يتوسل اليه بالفقر . على أن الفرق بين التصوف والفقر لا يقف عند هذا الحد ، وانما هناك فرق ثالث يمكن تلخيصه في أن الصوفي هو من اذا استقبله حالان حسان أو خلقان حسان كان مع الاحسن . على حين أن الفقير والزاهد لا يميزان بين الحالين الحسنين أو الخلقين الطيبين . بل هما يختاران من الاخلاق ماهو ادعى الى الترك والخروج عن شواغل الدنيا حاكين بعلمهما . وعلى العكس من هذا ترى أن الصوفي يحكم على الاشياء ويستبين الاحسن بما اهم من عند الله مستعينا في ذلك بصدق التجائه وحسن انابته وعليه بره . وبعبارة اخرى يمكنك أن تقول أن الصوفي لا يرى في الاشياء الا ما يظهره الله عليه ولا يحكم عليها الا بما أوحى اليه . فالتصوف على حد قول رويم ليس الا استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد . أو هو كما قال بعضهم أوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة من الله تعالى . والصوفي — كما قال سهل بن عبد الله — هو : « من صفا من الكدر . وامتلا من الفكر وانقطع عن البشر . واستوى عنده الذهب والمدر »

وخلاصة هذا كله هي أن الفقر أساس التصوف وقوامه .

وان التحقق بأحوال التصوف ومقاماته بنى على الفقر والزهد فيما اشتملت عليه الدنيا من زخرف ومتاع . وقد قص علينا مؤلف عوارف المعارف قصة رويت عن ذى النون المصري ، ولا بأس من ارادها فهي تظهر لنا على ما انطوت عليه نفوس الصوفية من تمسك بالفقر ، وامعان في الزهد ، واغراق في الاعراض عن ملذات الدنيا وشهوات النفس .

قال ذى النون . « رأيت ببعض سواحل الشام امرأة فقلت : من أين أقبلت ؟ قالت : من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، فقلت : وأين تريدن ؟ قالت : الى رجال لانهمهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . فقلت : صفهم لى . فأنشأت :

قوم همومهم بالله قد علقت فما لهم همم تسمو الى أحد
فطلب القوم مولاهم وسيدهم يا حسن مطلبهم للواحد الصمد !
ما أن تازعهم دنيا ولا شرف من المطاعم واللذات والولد
ولا لبس ثياب فائق اتق ولا لروح سرور حل في بلد
الا مسارعة في أثر منزلة قد قارب الخطو فيها باعد الابد
فهم رهائن غدران وأودية وفي الشوامخ تلقاهم مع العدد
فهذا الشعر وان كان ركيكا مهلهلا ضعيفا الا انه يصور لنا في وضوح نفوس الصوفية وقلوبهم وما احتوت عليه هذه القلوب وهذه النفوس من فناء في الله ، وذكر له ، واتحاد معه ، بحيث أصبحت نفوسهم لانفسكر الا فيه وقلوبهم لانزع الا اليه . وبحيث انهم تجردوا عن كل شهوة ، وخلصوا من كل لذة ، وتحرروا من هذه القيود الجسمانية التي تفسد على الانسان حياته الباطنية وتكدر صفاء سريره النفسية .

وآية ذلك هي أن الصوفي دائم التصفية والتنقية لنفسه ما يشوبها من الاكدار . وهو فوق هذا دائم الحركة والاضطراب بدوام التجائه وافتيقاره الى ربه . والتجاؤه وافتيقاره هما اللذان يهذبان قلبه وينقيان نفسه ويضيئان جوانب هذه النفس وهذا القلب بالمعرفة الصحيحة الصادقة التي تكشف له عن حقيقة الله وماهية الاشياء . وعلى هذا ترى انه لا بد للصوفي من دوام الحركة والاضطراب بدوام الافتقار والاتجاء وحسن التفقد لمواطن اصابات النفس . ولنترك الآن الباب الخامس بعد أن وقفنا عند أهم ما اشتمل عليه ولنعرض للباب السادس حيث يحدثنا السهروردي عن مسألة لها قيمتها العلمية وخطورها العظيم في تاريخ التصوف وفهم الاطوار التي مر بها فهماً صادقا مستقيماً . وأغنى بهذه المسألة مسألة الاصل الذي صدرت عنه كلمة (صوفي) والمصدر الذي اشتقت منه ونسبت اليه ، والمؤلف حين يحدثنا عن أصل كلمة صوفي يعرض

علينا أهم الآراء التي رآها القدماء واختلفوا فيها اختلافاً تجاوزهم إلى المحدثين من المستشرقين وغير المستشرقين من علماء الشرق . ولعل مؤلف عوارف المعارف أميل ما يكون إلى أن هذه الكلمة ليست إلا نسبة إلى الصوف . وهو يستمد في رأيه هذا إلى أن الصوف كان لباس الانبياء فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يجيب دعوة العبد ويركب الخمار ويلبس الصوف . وحكى عن عيسى عليه السلام أنه كان يلبس الصوف والشعر ويأكل من الشجر ويبست حيث أمسى . فأنت ترى أن هذا الكلام إن صح كان طبعياً أن يختار المتصوفة لباسهم من الصوف وكان بديهاً أن تكون نسبتهم إلى ظاهر لباسهم الذي ينسج منه . وهذا الرأي ملائم لما أخذ به الصوفية أنفسهم من زهد في ملذات الدنيا بصفة عامة وميل إلى اللباس الخشن وأعراض عن اللباس الرقيق الناعم بصفة خاصة ناهيك بأنه يلائم ملائمة تامة طبيعة الاشتقاق للغوى . فيقال تصوف الرجل إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص . وفوق هذا كله فانه نظراً لتقلب أحوالهم ومقاماتهم ودوام تقلبهم لم يكن هناك أمر يقيدهم ويجمع هذه الأحوال وهذه المقامات المتنوعة . ومن هنا كانت نسبتهم إلى ظاهر اللباس الذي اتخذوه ميزاً لهم مشيراً إلى ما يأخذون به أنفسهم من زهد وتقشف وورع . فكان ذلك أبين في الإشارة إليهم وأدل على حصر وصفهم . إذ أن ليس الصوف كان غالباً عليهم لتشبههم في ذلك بالانبياء والمقربين . ومن هنا ترى أن نسبتهم إلى الظاهر أوفق وأقرب إلى الاقتناع من نسبتهم إلى الباطن . فلو نسبوا مثلاً إلى حال ما ، أو إلى مقام ما ، كان ذلك أقل دلالة وأدنى إلى الغموض والابهام في الإشارة إليهم .

فما تقدم ترى أن نسبة الصوفية إلى الصوف أبين في تفهم حالهم وأدل على زهدهم وأقرب إلى التواضع منها إلى أى شيء آخر . وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن تسمية الصوفية بهذا الاسم راجعة إلى نسبتهم إلى الصوفة . وخلاصة هذا المذهب هي أنه لما كان الصوفية يؤثرون الذبول والخمول والانكسار والتواضع مثلهم في ذلك كمثل الصوفة الملقاة ، كانت تسميتهم بهذا الاسم نسبة إلى الصوفة . وهذا الرأي فضلاً عن أنه ملائم للدلالة على ما انطوت عليه نفوس الصوفية من الازدعان والذلة والخضوع فانه ملائم أيضاً لطبيعة الاشتقاق للغوى .

وهناك رأى آخر يتلخص في أن الصوفية سموا بهذا الاسم لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل لارتفاع همهم وإقبال قلوبهم على الله تعالى .

ورأى رابع ذهب فيه أصحابه إلى أن تسمية الصوفية بهذا الاسم

راجعة إلى نسبتهم إلى « الصفة » التي كانت لفقراء المهاجرين في عهد النبي . على أن هذا الرأي وإن كان صحيحاً من ناحية المعنى إلا أنه لا يستقيم من ناحية الاشتقاق للغوى . فالصوفية يشبهون « أهل الصفة » من حيث أنهم فقراء مؤلفون في الله مجتمعون في الله . وأصحاب الصفة هؤلاء كانوا نحواً من أربعين رجلاً لم تكن لهم بالمدينة مساكن ولا عشاير . كانوا يصرفون بياض النهار تحتطين ويقضون سواد الليل متعبين . آثرهم النبي بحبه لهم وعطفه عليهم وبره بهم حتى أنه كان يأكل معهم ويبحث الناس على مواساتهم . هم الذين نزلت فيهم الآية الكريمة . « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي » والذين نزلت في أحدهم وهو ابن أم مكتوم هذه الآية الشريفة : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » . فكان ذلك عتاباً للنبي ويقال أنه كانت توجد في بلاد خراسان طائفة من أهل الصفة لجأت إلى المغاور والكهوف ولم تسكن المدن والقرى . كان يسميهم أهل خراسان « شكفتية » لأنهم يطلقون على الفار لفظه « شكفت » فنسبواهم إليها . أما أهل الشام فكانوا يسمونهم « جوعية »

تلك هي أهم الآراء التي ذكرها السهروردي في أصل كلمة صوفي وقد أخذ بعدها في إظهارنا على أن هذه الكلمة تجمع المتفرق في الأسماء التي ذكرها الله في القرآن وسمى بها طوائف الخير المختلفة فقد سميت طائفة بالآبرار وأخرى بالمقربين وثالثة بالصابرين ورابعة بالصادقين الخ وانت إذا انعمت النظر فيما اشتملت عليه قلوب الصوفية من بر وصبر وصدق وذكر لرأيت أن لفظة الصوفي قد احتوت كل ما تدل عليه أسماء هذه الطوائف .

ويختتم المؤلف هذا الباب بذكر موجز لتاريخ كلمة صوفي فيقول أنها لم تعرف في زمن النبي وإنما عرفت في زمن التابعين . واثبت هذا بذكر كلام روى عن الحسن البصري قال فيه : « رأيت صوفياً في الطواف فاعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال : « معي أربع دوايق يكفيني مامع » على هذا ذهب بعضهم إلى أن هذا الاسم لم يعرف إلى المائتين من الهجرة . فكان أصحاب رسول الله يسمون الرجل صحابياً حتى إذا انقضى عهد النبي سمي من أخذ العلم عنهم تابعياً . ولما ان تقدم عهد النبوة وانقطع الوحي وأقبل الناس على الدنيا وتهافتوا على زخرفها انفردت طائفة بالعبادة والتقوى واعرضت عن الدنيا فكانت هذه الطائفة هي الصوفية « الاسم سميهم . والعلم بالله صفتهم والعبادة حليتهم . والتقوى شعارهم . وحقائق الحقيقة اسرارهم » ؟

محمد مصطفى حلمي

ماجستير في الآداب